

على السَّفود



وَالسَّفُودُ نَارٌ لَوْ تَلَقَّتْ بِجَاحِهَا حَدِيدًا ظَنُّ شَحْمًا
وَيَشْوَى الصَّخْرَةَ كَمَا رُمَادًا فَكَيْفَ وَقَدَرِ مَيْتُكَ فِيهِ لَحْمًا؟
الفيلسوف ...

بقي من أوصاف العقاد الشاعر المراحضي (أو صاحب مرحاضه) وصف
لم نعرض له فيما أسلفنا من الكلام عليه وهو وصفه بالفيلسوف مع أن هذا
لمراحضي عند نفسه شديد التحقق بهذا الوصف ينزل عن إحدى عينيه لمن يقلعها
مسمار!! ولا ينزل عن كونه فيلسوفا وفيلسوفا وفيلسوفا...
وما أضحكنا ذات مرة أن كاتباً من خرقاء الشيوعيين الحمر مر على جلد العقاد

كما تمر القملة هيئة لينة إلى أن تغمس خرطومها ، فكتتب مقالة في جريدة البلاغ يصف فلسفة المراحضى ويقرظها، ثم غمس خرطومها بينه العقاد إلى مدعب ووحدة الوجود . فتناوله العقاد كما يتناول أحد البرابرة قملة من قفاه ! وكان مما كتب قوله : ان الكاتب الذى تبسط أمامه آراء جميع الفلاسفة (تأمل) ليتصرف فيها (تأملا) لا يحتاج أن يجتهد في آخر الزمان (تأملوا) من يذكره بوحدة الوجود الخ الخ . فالعقاد يتصرف في جميع فلاسفة الدنيا حتى كأن الله لم يخلقهم إلا ليفكروا له ويقدموا له منه الجبار جزية أفكارهم الذليلة الضعيفة وينادوه من وراء الغيب يامولانا صاحب مرحاضه املا مرحاضك الفكرى . . وما على مصر غير أن يحتلها الانجليز ، فان في مصر جبار ذهن أحتل دول الأرض كلها وحكمها من فلاسفتها ! ومن شعرائها ! ومن كتابها !!

لما أنشأ المجلس البلدى فى مدينة (كذا) خزاناً للماء أقامه على عمد طوال من الحديد الصلب وملاءه بماء النيل لينحدر منه الماء فيصعد فى أنابيب إلى منازل المدينة . قال الخزان للنيل ما شأنك ويحك ! وما مقامك فى هذا البلد الذى أنا ، أنا فيه ، وحسبك أن أقول أنا لتعرف من أنا . ألا ترى أيها الاعمى أنى أنا النهر الحقيقى وأنى جبار الماء وأن المدينة بناسها وبهائمها وشوارعها لا تشرب ولا تنضح إلا منى فلر أمسكت عنها يوماً أو بعض يوم هلكت ولعاد الناس من جفاف حلوقهم وتضرم أحشائهم فى مثل حالة نزع الميت واحتضاره ؟ قالوا فما زاد النيل على أن التفت اليه وقال : أيها الخزان أما مع المنازل وأشباه المنازل من قراء الجرائد !!! فتكلم كيف تعطى ، وأما معى أنا فقل ويلك من أين تأخذ ؟

هذا هو مثل الفيلسوف المراحضى يرجع الى ما قررناه مراراً من انه مترجم ناقل وتنقصه أمانة الترجمة لانه يأبى الا أن يدعى والا أن يتصرف بعباوته فيفسد فى الجهتين ولا تبقى فيه الا الدعوى ويكابر فى هذه الدعوى ويقايل عليها فلا تبقى فيه الا الوقاحة . إنما يريد الناس من يقول هذا رأى لا رأى فلان وفلان ، وقلت أنا لا ، قال فلان وفلان ، وساعات بين مؤلفاتى لا (ساعات بين الكتب) ! وأنا أفضل من يكتب صفحة واحدة فى اللغة العربية بأسلوب بديع ومعان طريفة وخيال سام وشخصية ظاهرة فى كل سطر ، على من يترجم كتاباً كاملاً من لغة أجنبية وإن كان لهذا فضله فى معناه وطبقته ، لأن الاول هو ثروة اللغة وبه وبأمثاله تعامل التاريخ هو الذى يحقق فيها فن ألفاظها وصورها وهو بذلك امتدادها الزمنى وانتقالها.

التاريخي وتخلقها مع أهلها انسانية بعد انسانية ، ولا تجديد ولا تطور الا في هذا الخلق متى جاء من أهله والجديرين به . أما الثاني فله فضل دابة الحمل وفضل عملها الشاق النافع الذي لا بد منه . ولكن لا ينبغي للعقاد أن يقول للغة أنا أوجدت وأنا فعلت الا إذا جاز للجار الذي يحمل شيئاً الى بيتك أن يقول لقيم الدار : خذ هذا ما صنعت لك ؟ وما عليك يا حمار لو استكملت فضيلتك ، وقلد . ما حملت . نسكم ؟

للمراحضى رأى فلسفي في تعريف الجمال — وناهيك من ذوق من يقول في شعره : مرحاضه أنخر أثوابنا . وما الذوق الا أداة الجمال وسبيل فهمه وتصويره كما هو مقرر فيقول العقاد « ان الجمال هو الحرية » ويرى ان هذا ابتكارات به الفلاسفة ويكاد يقول العقل الانساني بعد هذا الابتكار لم يبق بينه وبين الألوهية الا وثبات أو ثلاثة يمثل هذه القوة الجبارة

وانما ذكرنا هذا الرأي لانه يهمننا جداً في بيان مخافة هذا الرجل وغروره وحماته ثم هو في رأى المراحضى ابتكاره الخاص به وعمود فلسفته مع انه لو عقل لستره على نفسه ولكن الرجل ضعيف ملكة التوليد فيشبهه له فيشبهه عليه ، ويخيل اليه فيخال ، ويقول ابتكرت وتقول الحقيقة بل أفسدت ، ويقول هذا نبوغى وتقول ألسنة النقد قل هذا سوء فهمك .

أما أن للعقاد توليداً في شعره وآرائه مما يقرؤه ويطلع عليه أو يدرسه ويشاهده فهذا صحيح ولو لم يبتله الله بالغرور يفسد عليه تمحيصه وامتحان آرائه لكان يرجو أن تنمو عنده الملكة ويبلغ مبلغاً ، ولكن ماذا نقول في رجل لسانه من شؤمه ولؤمه لا يكون دائماً الا امام تفكيره ؟ قال له مرة أديب كبير — امام الاستاذ محرم المقتطف — متحم ثلاثة أشهر ياعقاد عند ما تقرأ في كتابي الجديد كلمة الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في تقريطي . فرد المغرور : « الشيخ محمد عبده لا يعرفك » مع ان الشيخ توفي قبل أن يكون العقاد معروفاً وقبل أن يكتب مقالة ، ولم يكن هذا العقاد من ذوى مجلسه أو ذوى جماعته أو من شخصته ، وكتاب الشيخ بخطه في يد الاديب . ولكن لعن الله المحقد ولعن الله الحماقة .

وماذا نقول في رجل عقاد مراحضى رأى سعد باشا زغلول نابغة دنياه ودهره بقرط كتاب « إعجاز القرآن » فيقول يصف بلاغته وبيانه : كأنه تنزيل من التنزيل وينشر تقريط سعد في كل الصحف وهو حي بعد في سنة ١٩٢٧ فيجن العقاد — امام محرر المقتطف أيضاً — وبهم صاحب الكتاب في وجهه بأنه زور . . تقريط سعد ؟

مع أن كتاب سعد باشا في يد صاحب الاعجاز ومع أن كتاب الأعجاز هذا أمر جلالة مولانا الملك بطبعه على نفقته الخاصة ونشر كتاب سعد في صدر هذه الطبعة الملكية اللهم أنك تخلق ما تفهمه وما لا تفهمه وقد يكون العقاد بقية انسانية ونحن لا نندري. يرى القارىء من هذين المثاليين وما قدمناه في السفود الثالث من زعم العقاد أمام عرر التقطف أيضاً — انه أذكى من سعد باشا وأبلغ من سعد باشا — أن هذا العقاد كالآلة البخارية الحربية من بعض جهاتها، تعمل ولكنها تفسد، وتدور ليقول الناس ليها لا تدور، وهى بخارية من آخر طراز، ولكنها حمقاء كذلك من آخر طراز بتلك الحماقة المغرورة أضعفت ملكة التوليد عند المراحضى وظل النبوغ هو في هذه الملكة واستحكماها. فلن يفلح العقاد من بعدها ولن يكون الا كما كان ولن يخرج الا الآراء المضحكة من مثل قوله ان الجمال هو الحرية.

كيف جاء بهذا الرأى أعني كيف كان توليده اياه. أنه رأى الفيلسوف شوبنهاور الألماني (١) يقسم الدنيا الى فكرة وارادة ويقول أن الدنيا في «الفكرة» هي الدنيا المكنونة قبل أن تظهر في حيز الاسباب والقوانين وعلاقات الأشياء بعضها ببعض. وان الارادة هي هذه الدنيا التي تكابد أوصافها وقوانينها ولا تذوق السرور فيها الاسباب من الاسباب التي تدور عليها أغراضنا وشهواتنا. ولما كان سرورنا (بالجمال) سروراً بلا سبب ولا منفعة (أكذلك هو؟) فهو من قبيل الفكرة المجردة ونظر اليها كما هي في عالمها المنزه عن الاسباب والعلاقات. (اذا نظرت أنت اليها فكيف يكون لها حينئذ عالم منزّه عن الاسباب والعلاقات وأين يوجد هذا العالم وكيف تعرفه أنت) قال: والسر في وضوح احساسات الشباب (وجمالها) الكمال هو كما يقول شوبنهاور انا في عهد الصغر نرى فكرة النوع وراء صورة الفرد اذ تلوح لنا لأول مرة لأننا تمثل في كل فرد نموذجاً جديداً لم تسبق لنا معرفة به ولم تظهر لنا أية دلالة اخرى عليه. فالشجرة الأولى التي نراها تمثل لنا فكرة الشجر كله أى نموذج هذا النوع الجديد الذى لا عهد لنا به قبل ذاك ولا تقتصر على تمثيل شجرة واحدة زائلة هو شأنها عند من تواردت عليهم مناظر الأشجار الكثيرة. ولهذا نرى فيها الفكرة الافلاطونية التي هي في الحقيقة جوهر (الجمال).

هذا ضبط العقاد في تلخيصه رأى شوبنهاور وبعضه يتقص بعضه الا عند مثل هذا الرجل الذى لا يكاد يميز بل يأخذ بأول ما يبدوله. فان ما نراه في عهد الصغر حين

ترى الشجرة الاولى التى لاعهد لنا بجنسها ولا بنوعها قبل ذلك مما يجعل هذه الشجرة الواحدة هى الشجر كله - ان هذه حالة لن تكون هى ذاتها الا الحالة القائمة بنفس الشاب فتكون « السر فى وضوح احساسات الشاب وجمالها الكمال » ، ثم ترى المراحضى يقول لك « الفرد والنوع » والصواب الفرد والجنس لأن الشجرة الاولى التى يراها الطفل ان كانت شجرة تفاح مثلاً فهى لاتمثل لى نوع اشجار التفاح وحده بل جنس الشجر على أنواعه . ولنا بصدد تصحيح رأس شوبنهاور فقد يكون العقاد نسخه بسوء فهمه أو تعمد الاقتضاب كيلا يظهر موضع توليده أو فساد توليده ، يد أن العقاد يقول بعد ذلك : اين تتفق فى هذا رأى واين تفتقر (ما شاء الله اين يتفق العقاد وشوبنهاور واين يفتقران ؟) واين يتساوى القول بان الجمال « فكرة » والقول بان الجمال « حرية » ؟ يتساوى ان حين نذكر « ان الفكرة » فى رأس شوبنهاور لابد ان تكون بعيدة عن عالم الاسباب والضرورات ومن ثم لابد ان تكون مطلقة - من أسر الاسباب والضرورات (ففكرة من تكون هذه الفكرة البعيدة عن عالم الاسباب والضرورات ؟)

ثم اين يتعارض الفيلسوفان العظيمان : المراحضى !!! وشوبنهاور ؟ فيقول العقاد : يتعارضان حين نذكر ان الحرية لاتكون بغير ارادة وان شوبنهاور يخرج الجمال كله من عالم « الارادة المسببه » اى عالم « الفكرة المجردة » ،

وما الذى يرجح رأى فيلسوفنا !!! المراحضى !!! بأن الجمال هو الحرية ، على رأى شوبنهاور بأن الجمال « فكرة » ؟ يقول العقاد : يرجح ان الجمال يتفاوت فى نفوسنا ويتفاضل فى مقاييس افكارنا - ولو كان المعول على ادراك « الفكرة » وحدها فى تقدير الجمال لوجب ان تكون الاشياء كلها جميلة على حد سواء .

ونوضح ذلك فنقول : لو كانت الشجرة جميلة لانها فكرة ، فقط ، لما كان هناك داع لتفضيل فكرة الانسان على فكرة الشجرة (افهموا ياناس) ولاصح لنا ان نزع ان الناس اجمل من الاشجار (برافو مراحضى) . ولكننا نعلم ان فكرة الانسان غير فكرة الشجرة (تمام تمام !!!) . وان الفكرتين تتفاضلان فى تقدير الجمال (صحيح لأن الشجرة تقدر جمال الناس كما يقدر الناس جمالها !!!) . ولابد

ان يكون تفاضلهما بمزية أخرى ، فاهي تلك المزية ؟

قال المراحضى : هى الحرية : فالانسان اوفر من الشجرة نصيباً من الحرية (برافو برافو !!!) ولذلك هو اجمل منها (ياسلام ياسلام على هذا المنطق فى رأى من هو اجمل منها ؟ فى رأى الجبل بالطبع لانه لابد من حكم بينهما يحكم أيهما الاجمل -

والا فما الذى يمنع الشجرة ان تحكم لنفسها كما حكم الانسان لنفسه ؟) .

قال المراحضى الفسيلوف ! « وكذلك تتفاوت « الأفكار » فلا يغنينا القول بان الجمال فكرة، عن القول بأن الحرية هى المعنى الجميل فى الفكرة ، أو هى التى تهيب الفكرة ما فيها من الجمال (١)

إلى هنا يظهر أن العقاد يفكر ويصحح لشوبنهاور . ولكنه سقط بعد ذلك على أم رأسه وأظهر الجملة التى منها سرق . فقال : وقرر شوبنهاور أن المادة الصماء لا جمال فيها ولا أنس لديها، وأنها تقبض الصدر وتثقل على الطبع (كالملاس والزمرد والذهب مثلاً فهى مادة صماء ولا جمال فيها وتقبض الصدر وتثقل على الطبع !!)

قال : فلم كانت كذلك ؟ ألا لأنها عارية عن الفكرة ؟ كلا فما من شئ محسوس إلا له فكرة مكنونة فى رأى شوبنهاور . ولكنها تقبض الصدر وتثقل على الطبع لأنها تمثل الركود والجود أو تمثل الجزء من الإرادة والحرمان من (الحرية) . وقد ذكر شوبنهاور نفسه بعض هذه العلة وقال : « ان الحزن الذى تبعثه « المادة غير العضوية » فى نفوسنا آت من أن هذه المادة تطيع قانون « الجذب » طاعة تامة فى حيث تتجه الأشياء . أما النبات فان منظره يشرح صدرنا ويسرنا سروراً كبيراً (كلما ترك وشأنه) . وسبب ذلك أن قانون الجذب يبدو لنا كالمعطل فى عالم النبات لأنه يتجه إلى خلاف الجهة التى يجذبها إليها ذلك القانون . وهنا تتخذ ظاهرة الحياة لنفسها طبقة جديدة عالية بين طبقات الموجودات نتمى نحن إليها وتتصل هى بنا ويقوم عليها عنصر وجودنا فترتاح إليها قلوبنا . الخ

قال العقاد : وإلى هنا يسبق الى ظنك أن شوبنهاور سيخلص من هذا القول الى نتيجة القرينة فيقول إن الأشياء تحزننا بما فيها من معانى الخضوع ! وتفرحنا بما فيها من معانى الحرية ! أو أنها تحزننا كلما قل نصيبها من الإرادة وتفرحنا كلما عظم نصيبها من هذه الصفة . ولكنه يدع هذه النتيجة القرينة إلى نتيجة أخرى لا تؤدى إليها (نريد لا يؤدى إليها كلامه السابق)

معنى كل هذا أن العقاد استخرج النتيجة الغريبة وقال : ان الجمال هو الحرية وأما شوبنهاور صاحب البحث والرأى فمغفل جاهل لأنه وضع البحث كله ولكنه استخرج نتيجة أخرى كأن الذى وضع النحو وقسم الكلام الى اسم وفعل وحرف فعل ذلك وهو لا يعرف ماهو الاسم ولا ماهو الفعل !

(١) كل ما نقلناه هو من الصفحات ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ من كتاب مراجعات للعقاد

أنى الأرض معتوه واحد يصدق أن شو بنهور يعنى عن النتيجة القريبة لكلامه هو، أم الأعمى هو العقاد الذى لم يفهم ما يريد شو بنهور من أول كلامه الى آخره . فان حصل كلام هذا الفيلسوف (١) أن ماتراه بسبب من ارادتك وغرضك وشهواتك لجمالته . فبك أنت لافيه ، لانه صورة الاستجابة الى ما فيك ، فلم يكن فيك أنت هذا الغرض لم يكن فيه هو ما خيل لك من الجمال . فهو على الحقيقة باعتبار الفكرة المجردة لاجمال فيه ، وانما أنت صبيغته وأنت أوقعته ذلك الموقع من نفسك . فالنتيجة من ذلك « ان الاشياء تخزننا (أى لانراها جميلة) كلما ابتعدت عن عالم الفكرة

(١) نريد من العقاد وأمثاله اذا ترجموا ان يقولوا ترجمنا وأن يأتوا بالكلام المنقول على نصه ليفهم منه كل قارى على ما يفتح له . ولكن العقاد على انه مترجم يأتى أن يكون مترجماً ف يأخذ ما يريد أن يأخذ ويدع ما يستحسن أن يدع ، لامن حكمة أو فائدة بل على ما تنتجه اليه خطته فى السركة والاغارة على الناس وانتحال آرائهم وأفكارهم وكل كتبه مشحونة بمثل هذا فأنت تجد فيها كل كاتب أو شاعر أو فيلسوف انجليزى ومن كل ما نقل الى الانجليزية على انه للعقاد لا لاصحابه ، فلن جاء منه شيء معزوا لصاحبه جاء خليطاً كما رأيت فى كلام شو بنهور تستطيع ان تنفضه وترده بأيسر التمهيص لانه على قدر فهم العقاد لاعلى ما وضعه قائله او كاتبه ، وليس هذا وحده بل مع فهم العقاد وشعوذته على القراء وسوء قصده من الغرور والوقاحة . فالامر كما ترى أشبه برقيع يدعى النبوة والوحي ويعمل على انه نبي ويكابر فى انه غير نبي ، فكل ما جاء به عالياً عالياً لم ينجح بطبيعته وطبيعة عمله الاسافلا سافلا .

ولأجل هذا فنحن لانتق ان ترجمة العقاد عن شو بنهور هى نص معانى شو بنهور على أغراضها وسياقها فلا تعرض لهذه الآراء ولا نقول فى تفسيرها وانما نذهب الى ما نظنه الاصل فى غرض الفيلسوف بجملا غير مفصل وخصوصاً بالجمال وحده دون ما نفرع من هذا الأصل .

والرأى الفلسفى الصحيح ان الحواس الانسانية زائفة لا تستطيع ان تحكم على الأشياء فى ذاتها وحقائقها ، ولا ان تتبين ماهى فى كنه انفسها . فليس فينا الا نسبة هذه الاشياء اليها كادة تلائم مادة أو تقاربها او تداخلها أو تضادها .

اما فكرة الشيء فى ذات نفسه كما هو فى كنهه ، «واتنا نخزن ونكتب لمنظر المادة الجامدة اذ لا تقاومه الجذب وفسر لمنظر النبات اذ يقاومه ولا ينقاد الا على الخلاف ، فهذا كله تخليط فى تخليط ، وعاقبة أكلة ثقيلة من القريبط

واقتربت من عالم الارادة ، وانها تفرحنا كلما ابتعدت من عالم الارادة واقتربت من عالم الفكرة ، (١)

وهذا رأى هو الرأى الصحيح فى معنى الجمال وبه يؤول اختلاف الناس فى تقدير جمال الاشياء ، لان الجمال فى أهوائهم وأذواقهم ومعانى نظرهم . وقد روى الجاحظ ان رجلا تزوج امرأة لم تكن رائحة أتن من رائحة جلدها ، فلما كان زفافها دلت جسمها بالمرنك لتزيل هذه الرائحة الخبيثة وبقيت تفعل ذلك فى سر من الرجل ثم غفلت يوما فاطلع على شأنها وأصابته هذه الرائحة منه هوى وجدبه نشاطا . ووفنهاها أن تغشه من بعد لانها لا تجمل فى هواه الا بهذه الرائحة . فكانت إذا سأله حاجة ومنعها ، قالت والله لا تمتركن ! فيادر الى قضاء حاجتها خيفة أن تطيب ريح جسمها هذا هو عالم الارادة المسية . فى رأى شوبنهاور فأى جمال فى صاحبة تلك الريح الخبيثة ، وهل يصطلح الناس فى عالم الفكرة ، على جمال تلك الريح كما رآها ذلك الذى ابتعد عن عالم الفكرة وارتطم فى ارادته ؟

على مثل تلك الطريقة من الغباوة وسرء الفهم وقبح الاجترار والغرور والحقارة تجد كل مايولده العقاد أو أكثره ثم يزين له لؤم نفسه أنه هو وحده الذى يهدى الى أسرار الاشياء ويلهم حقائق المعانى فيزدري الناس ويندرى عليهم بالظعن والتسفيه ويقول فيهم ما لو عقل أو أنصف لما قاله الا فى نفسه .

ولو تأملت ما كشفناه من سرقاته الشعرية لرأيت ان تلك هى قاعدته فى التوليد فلن يأتى بمعنى واحد أحسن من أصله وهذا حسبك فى الدلالة على قيمة الرجل وبيان منزلته . ولو كفى الوقاحة وحدها لا يمكن أن يفلح لان كل رذائله فروع من هذا الاصل ترجع اليه واحدة واحدة ولكن كذا خلق ولن يغير الامس وقد مضى ، ولن يرجع له أب آخر وأم أخرى وحارات وأزقة . . .

ولا بأس من هذا الخبر . استفتى المراحضى مرة رجل من العراق فى أمر القديم والجديد ومناظرة كانت بين فلان وفلان . فخط العقاد على طريقته ولكن الذى راعنا مما كتب أنه قال ان كتاب العرب لم يجدوا فى المعانى المطولة ، بل كانوا إذا طرقت هذه الموضوعات أسفوا وضعفوا واجتنبوا الاساليب الادبية المنمقة وأخذوا فى أسلوب سهل دارج لا يختلف عن أسلوب الصحف اليومية عندنا (يعنى لا يختلف

(١) هذه النتيجة هى التى استخرجها شوبنهاور قبل العقاد وليس بعجيب أن يراها خطأ لانه لم يفهم ما بنيت عليه كما رأيت .

عن اسلوب العقاد ١٩٩٤ .) في شيء كثير . قال : « ومن شك في ذلك فليزني صفحة واحدة من مصنف عربي في مبحث من المباحث الاستقرائية مكتوبة بلغة تضارع لغة الادباء في الرسائل والمقامات ؟؟ أو يصح ان يقال انها لغة أدبية ذات طريقة محض عربية (كذا) قال : ولست اكلف المخالفين لرأيي أن يجيئوني بصحيفة عالية البلاغة من كتاب فلسفي أو منطقي . فهذا قل أن يتيسر في لغة من اللغات ولكني أكلفهم أن يجيئوني بصفحة واحدة (عجائب) بلغة من موضوع في الموضوعات الخطائية المرتجلة التي تكلم الجاهليون في مثلها على البدهة . انهم لا يستطيعون ، انتهى بحروفه

انظروا أيها الناس اهذا كلام رجل يكتب بعقل أم بوقاحة . وهل اطلع هذا المراحضي على كل ما كتبه العرب ؟ وان كان أطلع على كل كتبهم فهل قراها كلها حتى أيقن أنها خالية من صفحة واحدة ، تكون بلغة في موضوع فلسفي أو منطقي أو علمي ؟ وهل انتهى اليها كل ما ألفه كتاب العرب أو كل ما ترجموه ليقراه المراحضي ويجزم بأنه ليس فيه صفحة واحدة من ذلك .

وكيف لعمر ك يكتب مثل الجاحظ اذا ترجم أو كتب في موضوع علمي ؟ أينزل عن طريقته وينسى اللغة كلها ليحيى بكلام بارد ككلام العقاد والصحف اليومية ؟ على أن أدبيا قابل العقاد بعد هذه المقالة وقال له ان للجاحظ رسالة كاملة تملأ نحو مائة صفحة في مثل هذه الموضوع وهي من أبلغ ما كتبه وظلها عالية الطبقة في اسمي ما بلغ اليه الجاحظ بقله وعبارته وأسلوبه (١) . أتدري أيها القاري بماذا أجاب الرقيع ؟ لم يقل للاديب أطلعني عليها ، ثم أقر أنه لم يطلع عليها ، ثم قال . (ليه ياترى ؟) قال إنها غير مرتبة ؟؟ ؟؟

هذا والله جوابه بحروفه . رسالة لم يقرأها ولم يعرفها ومع ذلك يقول انها غير مرتبة . وسبحان الله ولا اله الا الله

على ان هذا يؤخذ دليلا على وقاحة هذا الكاتب وعته ومكابرته وان لسانه دائما يستمد من طباعه قبل أن يستمد من عقله فيسبق بما في قلبه أو في نفسه قبل أن يجيى بما في نظره أو في عقله — يؤخذ أيضا من الأدلة على جهل العقاد بالبلاغة وأساليبها وكيف تكون وكيف تنقاد ، وان رجلا من بلغاء الناس كعبد الحميد أو ابن المقفع أو سهل بن هارون أو الجاحظ أو من في طبقتهم لو هو تناول أعسر المواضيع العلمية

(١) هي رسالة الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير ، مبين فيها حكمة الخالق في انواع خلقه ويرد على ما انكره المعطلة من معاني الاشياء واسبابها الخ الخ

لصبغها بأسلوبه وأنزل الكلام فيها على طريقته وأخرج النغم الانشائي حتى من الحجر ومن التراب ، لأن الأسلوب انما هو صورة مزاجه اللغوي ، فان لم يجد له المعاني التي يظنها العقاد خاصة بالمواضيع الأدبية أو الخطابية وجد له اللفظ ووجد له النسق . ومتى وفق كاتب في الفاظه ونسق الفاظه ، فقد استقامت له الطريقة الأدبية وجاء أسلوبه في الطبقة العالية من الكتابة . واكثر كلام العرب يخرج على هذا الوجه فتراه بليغا في أدائه رصينا في الفاظه متينا في عبارته ولا طائل من المعنى وراء ذلك .

غير ان العقاد وأشباهه من سوقة الكتاب وعوام المتعلمين انما يدافعون بمثل ذلك القول عن جهلهم وعجزهم وانحطاط اساليبهم كأنهم يقولون انما ابتلينا بالضعف والقئامة والركاكة من جهة أننا نكتب في المعاني العلمية والاجتماعية والاستقرائية والهبائية ؟؟؟ ولو قد كان العرب كتبوا في مثل هذا لكان كلهم عقادا شقادا ؟؟؟ (١) أنا أفتح الآن الورقة الأولى من كتاب الجاحظ فاذا هو يقول في حكمة زرقه السماء : فكر في لون هذه السماء وما فيها من صواب التدبير فان هذا اللون أشد الالوان موافقة للابصار وتقوية بها حتى ان من صفات الاطباء لمن أصابه شيء أضر بصره إدمان النظر الى الخضرة ما قرب منها الى السواد وقد وصف الحذاق منهم لمن ظل بصره الاطلاع في إجابة خضراء مملوءة ماء . فانظر كيف جعل هذا الاديم أنيم السماء بهذا اللون الأخضر الى السواد لمسك الابصار المتقلبة عليه فلا يتكى فيها بطول مباشرتها له فنصار هذا الذي أدركه الناس بعد التفكير والتجارب يوجد مقروغانه في الحلقة ...

فكر في طالع الشمس وغروبها لاقامة دولتي النهار والليل فلو لا طلوعها لظل أمر العالم كله فكيف كان الناس يسعون في حوائجهم ومعايشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بلذة العيش مع فقدهم لذة النور وروحه . فالأرب في طلوعها ظاهر مستغن بظهوره عن الاطباب فيه . ولكن تأمل المنفعة في غروبها لم يكن للناس هدو ولا قرار مع عظم حاجتهم الى الهدو لراحة ابدانهم وجحوم حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة لهضمهم الطعام وتنفيذ الغذاء الى الاعضاء كالذي تصف كتب الطب من ذلك . ثم كان الحرص سيحملهم على مداومة العمل ومطاولته الى ما تعظم نكايته في ابدانهم ، فان كثيرا من الناس لولا جثوم هذا الليل بظلمته عليهم لما هدؤوا ولا قروا حرصا على الكسب والجمع ، ثم كانت الارض ستحمي

(١) شقاد يعني عقاد على حد قول العرب شيطان ليطان

بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت بتدبير الله تطلع وقتا وتغرب وقتا بمنزلة سراج رفع لاهل البيت مليا ليقضوا حوائجهم ، ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليهدؤا ويقرأوا فصار الظلمة والغور على تضادهما متعاونين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه .

ثم فكر بعد هذا في ارتفاع الشمس وانحطاطها لاقامة هذه الازمنة الاربعة من السنة وما في ذلك من المصلحة ، ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات فتتولد فيه مواد الثمار ويستكثف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر وتشتد أبدان الحيوان وتقوى الأفعال الطبيعية وفي الربيع تتحرك الطبايع وتظهر المراتب المتولدة في الشتاء فيطلع النبات وينور الشجر ويهيج الحيوان للسفاد . وفي الصيف يخدم الهواء فتضج الثمار وتحلل فضول الأبدان ويحفر وجه الأرض فيتهيأ البناء والاعمال . وفي الخريف يصغور الهواء فتتفهم الامراض وتصح الأبدان ويمتد الليل فيمكن فيه بعض الاعمال الطويلة إلى مصالح أخرى لو تنقص ذكرها طال الكلام فيها ...

والكتاب كله مع هذا النسق وبمثل هذه العبارة . وهذا الأسلوب وقد يعلو فيه حتى يفوت أسلوب الرسائل وانما يمكنه من ذلك مزاجه اللغوي وحسن هذه اللغة في نفسه واحاطته بمفرداتها في كل باب وكل معنى فما يعجزه قبيل من الكلام ولا فن من القول في منطق أو فلسفة أو اجتماع وما داخلها نوعا من المداخلة أو أشبهها وجها من الشبه . وانما الجاهل الغبي الركيك الذي يحسب اللغة لغتين في القلم البليغ هو العقاد المراحضى ، لانه لا يحسن شيئا من كل ذلك ولم يطلع ولم يقرأ لمن احسنوه وبأنى أن يقر في حيزه وحيز أمثاله فيتناول بعنق الزرافة ويذهب يزعم ويخلق من أكاذيبه ومزاعمه ولا يخجل أن يقول هات صفحة واحدة . تشدكم الله أيها القراء إذا لم يكن هذا هو الجهل المركب فما هو الجهل المركب ؟



ونعود الآن إلى توليد العقاد وسوء ملكته في ذلك وكيف يصنع أقبح الصنع بما يدل على ضعف وبلاغة وعامية في الطبع وإذا فسد توليده ونزل في معانيه فابقى في الرجل الا اللص ، وهذا ما نقول به ونقرره ولا نظن أحدا ممن يقرؤون السفود ، يكابر فيه فلقد غسنا وجه هذه العجوز . وانتزعنا (طقم الاسنان) من فمها وقلنا لوجهها انطق الآن يا ...

قال صاحب مرحاضه أو المراحضى فى صفحة ١٤٦ من ديوانه أو مزبلته ١ :
يتنزل

صفه فى كل كساء صفه فى كل الجهات
هو فى الروضة إذ يمشى أحب الزهرات
وهو فى القفر رياض من هوى لامن نبات
تم والله فيالى ت به بعض الهنات
تم حتى أتعب العين بفرط الحسنات

هذا من أحسن شعر المراحضى ، ولكن لاتنخدع وفتش وانظر كيف يبحى .
باسخف توليد فى البيت الذى هو أحسنها أى فى البيت الاخير .

نقول : « صفه فى كساء » حتى فى كساء شحاذ قدر ؟ حتى فى كفن ميت ؟ حتى فى
ثوب مصاب بالجذام ؟ أياحيب المراحضى ! لاتقبله إلا وفى يدك كرباج سودانى .
« صفه فى كل الجهات » حتى فى القبر ؟ أياحيب المراحضى ، الكرباج
الكرباج .. والبيت الثانى من قول القائل :

تظنه الروضة إما مشى فى أرضها أجمل أزهارها
وقلب ابن المهدي هذا المعنى فجاء به طريقا إذ جعل الحية تفتى عن الروضة .
كلها فقال :

خلتها فى المعصفرات القوانى (١) وردة من شقائق النعمان
أنت تفاحتى وفيك مع القنا ح رمانتان فى غصن بان
وإذا كنت لى وفيك الذى أهدى فى حاجتى إلى البستان ؟
وأثقل شعر على النفس جعل المراحضى حبيه (فى القفر) رياضنا من هوى .
لامن نبات !!! أهذا بما يجعل للحبيب قيمة فى القفر ولو قيمة بصقة ماء ؟ . ولو
قيمة عود نبات يابس ؟ أفليست بصقة ماء عند (القفر) أفضل الف مرة من روضة
هوى فى خيال معتوه ؟ الكرباج ياحيب المراحضى .
وتشبه الحبيب بالروضة كثير ، ولكن لم يقل أحد روضة هوى فى قفر غير هذا
البارد الفاسد الخيال .

ويقول (تم والله فيالى ت به بعض الهنات) . . . الكرباج الكرباج . . هل فى

الدنيا حبيب يقبل من محبه أن يقول له ياليت بك العيوب ؟ وفسر الهات بالعيوب الطفيفة فما هي العيوب الطفيفة التي يتمناها هذا الاحق في حبيبه وخلقته وجماله ؟ ولكن لمن الله التوليد اللثيم واللصوصية الوقحة . فأنظر كيف صنع الشاعر حين قال :

ما كان أحوج ذا الكمال الى عيب يوقه من العين

فهذا هو الاحق العقاد لان الشاعر يخشى كمال حبيبه من اصابة العين فلا يتعنى أن يبتليه الله بعيب لان هذا التمنى لا يكون من قلب محب ولا ينجي . إلا من كبد غليظ بل يقول « ما كان أحوجه » وكان هنا في منتهى الرقة والظرف كما ترى وهي تكاد تدوب حنانا وعاطفة

ويقول المراحضى : ثم حتى آتعب العين بفرط الحسنات

قل لحبيبتك : أتعبت عيني ، ثقلت على عيني ، عني (بتوجعني) من فرط حسنك !!! الكر باج الكر باج يا حبيب المراحضى ! ان لم تكن أيضا مغفلا رقيعا غليظ الحس

ان كل ما أتعب ترغب العين عنه وترى راحتها في إغفاله وما يكون مثل هذا في وصف الجمال المعشوق ولم يقله الا العقاد وحده في بلادة وغباوة وجفاء بربرى همجي . وليأتنا من استطاع بيت واحد لشاعر سليم الذوق يذكر فيه « تعب عينه » من فرط حسن محبوبه ونحن نكسر هذا القلم ونسلم بكل ما يدعى .

انظر كيف صنع ابن الرومي في قوله

وفيك أحسن ما تسمو النفوس له فأين يرغب عنك السمع والبصر

هكذا هكذا . ثم يعبر في شعر آخر عن معنى تمام الحسن تعبيراً في غاية الابداع يثبت المعنى الذي أراده المراحضى في نفسه وينفي مع ذلك تعب العين كأن في العين من أجل الحبيبة طبيعة غير طبيعتها التي خلقت عليها فيقول

أمر شيء لا تسأم العين منه أم لها كل ساعة تجديد

هذا والله هو المرقص المطرب ولو قاله أكبر شاعر في أكبر أمة لزاد في أدبها . وانظر مع كل ما رأيت كيف عبر الشاعر العربي الذي لم يدرس ولم يتعلم ولم يجمع كل ديوان شعر وكتاب أدب في الانجليزية ولم يكن جبار ذهن ! ، كيف عبر عن خبرته في تمام حسن حبيته وفرط جماله في رأى نفسه وكيف أبان عن المعنى الفلسفي الدقيق الذي انتهت اليه الفلسفة الحديثة في وهم الجمال . وأنه في الناظر لافي المنظور والشاعر هو بشر بن عقبة العدوى في قوله .

فوالله ما أدري أنت كما أرى أم العين مزهو إليها حببها
 بديع بديع ، حلو حلو ، شعر كالحبيرة وإن كان مولدا من قول امرئ القيس
 أهالك إجلالا وما بك قدرة على ولكن ملء عين حببها
 ولكن ليس هذا كله من غرضنا بل غرضنا أن نبين كيف تهيأ للعقاد المعنى (تعجب
 العين) وكيف ولده لأن ذلك دليل قاطع على أن شعره من الشعر كالمراحض من
 القصر... وأنه ليس هناك ولا يقال له إلا ما قال الأول
 فعد عن الكتابة لست منها ولو لطخت ثوبك بالمداد
 وكذلك يقال له لست من الشعراء ولو بال في أفخر أثوابك عزوز لتقول فيه
 مرحاضه أفخر أثوابنا...

لابن الرومي في هذا المعنى بيتان ولا بد ولا بد أن يكون المراحض سرق من
 أحدهما: الأول قوله وصف المهرجان:

مهرجان كأنما صورته كيف شاءت مصورات الأمانى (١)

يمكن العين لحظة ثم ينهى طرفها عن ادامة اللحظان
 ومعناه أن هذا المهرجان من كثرة أضوائه وزينته لا يستطيع الأعين أن تحقّق
 فيه طويلا. فنقل ذلك إلى المعنى الشعري وجعل له سلطانا ينهى به العين فتغض. فإن كان
 العقاد سرق من هذا فقد فهم أن العين تعجب وأنه إذا جعل مكان المهرجان حببته
 وجعل حسنه هو الذى يتعب العين الحفنية السرقة وصار المعنى عقاديا شتاديا ، خفيب
 العقاد هنا خمسون ومبة، من مصايح علاء الدين Alladine التى تضاء بظغط الغاز
 ومائة مصباح كهربائى قوة مائة شمعة ، وبعبارة مختصرة يا حبيب المراحض أنت دكان
 فراش... ، آه لو كان معك الكرباج السودانى من قبل .
 والبيت الثانى لابن الرومي قوله.

لا يسىء الا وفيه أحسنه فالعين منه اليه تنتقل

وهو تكرر لقوله (وفيك أحسن ما تسمو النفوس له) (البيت) ونحن نرجح أن
 العقاد سرق من هنا لأن هذا الصنيع هو الأشبه بغاوتة وفساد توليده ، فقد تصور
 هكذا : إذا كان لاشئ الا وفيه أحسنه ، فقد تم ، وإذا كانت العين تنتقل منه اليه وإليه منه
 فهذا لا يشتم ، ولا يمكن أن ينتهى الا إذا تعبت العين والانتقال الذى لا يزال من

هنا الى هناك ومن هناك الى هنا انتقال متعب فيخرج من القضيتين أن تمام الحسن
يتعب العين فيكون نظم هذا الكلام هكذا :

ثم حتى أتعب العين . . .

وهكذا يكون شعر اللصوص الأغنياء ويمثل هذا الهراء ينخدع فيهم المغفلون ويسمون
مثل هذا المراحضى جبار ذهن . . . ويعبرونه بنفسه فيظن ويظنون أن الأدباء يعجزون
به ويمد له الظن فيحسبهم يخشونه ثم ينمى له وهمه ولوومه . فإذا هويشور بهم وينتقصهم
ويلقاهم بعامية أصله وسفاهة دمه وأنه لأهون عليهم من سحق نملة لو عركوه وأقذر
من شقق ذبابة لو تركوه



اكتشاف كيماوى

بواسطة النحل

كيلو من السكر ثمنه أربعة آلاف جنيه

كان الكيماوى الأمريكى الذائع الصيت البروفسير هيدسن يشغل مع زميله
النمسواى الدكتور جينوباسكى فا كتشفا نوعا جديدا من السكر بطريق الصدفة
القرية . فقد طلب منهما مزارع كبير من مزارعى ترانسلفانيا أن يحللا قرصا من عسل
لهشكل غير مألوف . فقرررا بعد الفحص الميكروسكوبى أنه مأخوذ من عصارة الصنوبر
وتوصلا بعد البحث الدقيق الى معرفة حقيقة الواقع . فقد انحبس المطرفى هاتيك الاصقاع
واشتد الغيظ فبست الزهور التى كان النحل يجنى منها عسله . ولما لم يجد أمامه مايقوم
بحاجته دفعته غريزته التى لا تخفى الى شجر الصنوبر الكثير فى تلك النواحي فرجد
فى ثمار المادة اللازمة لتكوين عسله وملء خلاياه وقد حول الكيماوى ان قرص العسل
الى سكره كمرر فخلا منه على كيلو جرام اطلق عليه جديدا وهو تيكانوز .

ولما كانت هذه السمية من السكر هى الوحيدة التى استخرجت من الصنوبر فقد
عدما الاميركيون تحفة نادرة وقرمها بعشرين الف دولار أى بأربعة آلاف جنيه